

أدب الرحلة من التقرير إلى التخيل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

The literature of journey from the report to the imagination

The journey of Abi Hamid al-Granati. A model

فوزية قفصي¹

¹ جامعة باجي مختار-عنابة fouzia.gafsi@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2023/11/16 تاريخ القبول: 2024/02/06 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص:

يقوم النص في أدب الرحلة على ثنائية التقرير والتخيل، فهو أدب هجين ينفتح على العديد من العلوم المختلفة كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا، ويتجلى ذلك من خلال وصف البلدان والعمران والشعوب وعاداتها وسلوكاتها، إلى جانب الأدب الذي يعتمد على رواية الأخبار، ونقل المشاهدات، ومن هذا المنطلق سنهتم في هذه الدراسة بالكشف عن حدود التقرير والتخيل في رحلة أبي حامد الغرناطي.

يتعلق الخطاب التقريري في الرحلة بتجربة السفر والتنقل في الزمان والمكان وبالتحديدات التي يعرضها الغرناطي في نصه معتمدا على التاريخ والوصف والملاحظة والإخبار، أما الخطاب التخيلي فيرتبط بالأدبية والسردي حتى وإن كان يوهم بعرض الحقيقة مثل فن السيرة ورواية الأخبار التاريخية والمنامات وكرامات الأولياء، ونقل الحكايات الشعبية والخرافية وغيرها، فعملية الاسترجاع للأحداث الماضية وإعادة بناءها إلى المحكي هو فعل تخيلي، أما التقرير فيميل إلى التجسيد والوصف وهو الإطار العام للرحلة.

كلمات مفتاحية: خطاب، نص رحلي، التقرير، التخيل.

Abstract: The text in the literature of journey is based on the duality of report and imagination. It is a hybrid literature that opens up to various sciences, and this is evidenced by the description of different factors, and also literature that relies on

the narration of news and the transmission of observations. This study is concerned with the limits of report and imagination in the journey of Abu Hamid al-Granati.

The report discourse on the trip relates to the experience of traveling and moving in time and space. The limitations presented by Al-gharnati in his text relies on four points. The imaginary discourse is related to literature and narrative, even if it is an illusion of presenting the truth. The process of retrieving past events and returning them to the narrator is an imaginary act. The report tends to materialize and describe, which is the general framework of the trip.

Keywords: Discourse, text of the journey, report, imaginations

*المؤلف المرسل: فوزية قفصي

1. مقدمة

يعد أدب الرحلة من فنون الأدب العربي، لم يظهر هذا الفن في تاريخ السرد العربي القديم تحت مسمى أدب الرحلة، وإنما كان يُجمع مع كتب التاريخ والجغرافيا أو كتب السيرة الذاتية، وجاء هذا المصطلح وليد العصر الحديث ليعكس استقلالية وتفرد هذا النوع الأدبي.

ولأن السرد لا حدود له ويتسع ليشمل كل أصناف التعبير كالرسم والنحت والتاريخ والأسطورة، فإن أدب الرحلة كذلك لا يخلو من حقائق تاريخية وجغرافية وأنثروبولوجية وتخيل أدبي، لذا سنحاول في هذه الدراسة الكشف عن حدود التقرير والتخيل فيه من خلال تسليط الضوء على رحلة أبي حامد الغرناطي، المعنونة بـ "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، والتي تعود إلى القرن السادس الهجري.

2. تحديد مفاهيمي:

1.2 أدب الرحلة:

هو نوع من النثر الأدبي يتخذ من تجربة السفر موضوعا له، يصور فيه الكاتب -الرحالة ما حدث له وما صادفه من أمور ومواقف خلال رحلته، ويشترك هذا الفن في بعض من خصائصه مع أشكال أدبية أخرى كالمذكرات واليوميات والسيرة الغريبة والسيرة الذاتية وفن الوصف.

يقوم الرحالة فيه بالترجمة لنفسه أو لغيره ممن قابلهم أو سمع عنهم، فمن الرحالة من كان ينقل عن غيره مشاهداتهم ويروي قصصهم وأخبارهم، وبعضهم يمزج التحقيق العلمي بالأسطورة والخيال، والرؤية الموضوعية بالرؤية الشخصية والانطباعية، ومنهم من اهتم بأخلاق تلك المجتمعات ومعتقداتها وما تمارسه من عادات وطقوس (السعافين، 2000، صفحة 223)، فلكل رحالة منهجه الخاص في الكتابة وله اختيارات واهتمامات تعبر عن ذاته، فما يبحث عنه الرحالة يكمن ضمن ما يصرح به، ومنهج الكتابة في أدب الرحلة ليس موحدًا بل متعلق بميولات الرحالة وأهدافه المرجوة من الرحلة، وكثيرا ما نصادف فيها ذلك التركيز على الآخر وعاداته، والعجيب غير المألوف ووصف الأماكن والآثار وغيرها.

تشكل كتابة هذا النوع من الأدب من خلال نوعين من الخطاب تقريرى وتخييلي. ويلعب المؤلف دور المراقب الذي يروي ما يراه ويصادفه، ويؤدي دور البطل الذي يعيش تجارب جديدة. ويسلط على نفسه الضوء ليكشف عن مشاعره أثناء الرحلة معتمدا على نوعين من السرد، أحدهما موضوعي تقريرى والآخر ذاتي تخييلي، فالحاجة الملحة لمعرفة الآخر في عالم مختلف عن عالم الرحالة يستدعي دقة الملاحظة، إن فعل الكتابة الذي يبدأ بعد انتهاء تجربة الرحلة يستدعي ممارسة فعل التخييل عبر استرجاع الأحداث والمرويات والمشاهدات، ولا يسعى المحكي في أدب الرحلة إلى تنقية التباين الموجود بين المسرودات بل يستعمل كل أنواع الخطاب،

فوزية قفصي

ويدمج مع الجغرافيا التاريخ وعلم الإناسة واللسانيات والأحلام والخرافات والمشاهدات والمسموعات، فيلتقي فيه الخيال والواقع والتاريخ، ذلك أن "من أهم خصائص الرحلة تميزها بالحوارية بين مختلف أنساقها الخطابية المشكلة لبنيتها السردية ومن ثم فهي ملتقى لتعدد الخطابات" (مودن، 1996، صفحة 10)، فحضور الشعر يكاد يكون أساسيا فيها نظرا للأدوار والوظائف التي يؤديها: تفسيرية، سردية، وجمالية. وإذا كانت الجغرافيا تهتم بالمكان، فإن التاريخ يرصد الأحداث ويتبع حيثياتها.

إن محاولة تحديد طبيعته الأجناسية تقودنا حتما نحو فرضيتين نقديتين، تعتمد الأولى على استلهاًم مكونات وخصائص ميزت أعمالاً أدبية سابقة عرف عنها التميز، وتهتم الفرضية الثانية بالتعامل مع المطلق وما تعرضه النظريات الأدبية دون أن يتثبت القارئ من صحة نتائجها، خاصة مع تعدد الاتجاهات والمنطلقات الفكرية والنظرية منذ أرسطو وحتى يومنا هذا، (المناصرة، 2010، صفحة 8) فبالنظر للإرث السردى العربى وبالاعتماد على الفرضية الأولى يمكننا القول إن أدب الرحلة فن أدبي مستقل بذاته، له جملة من الخصائص التي تميزه عن غيره من الأجناس، لارتباطه بالتجربة الذاتية الواقعية من جهة، وارتباطه بالمحكي الذي يسرد تلك التجربة من جهة ثانية، فهو لا يخلو من الذاتية التي تدعي أو على الأقل توهم بالموضوعية ونقل الحقيقة.

2.2 مفهوم التقرير:

إن الخطاب التقريرى خطاب خبرى و إخبارى، يعتمد على النقل الصادق والموضوعى، فالأحكام التقريرية عند كانط هي أحكام صحيحة من جهة مطابقها للوجود، لا من جهة ضرورتها العقلية، وتسمى الحقائق التي تتضمنها هذه الأحكام بحقائق الواقع، أو حقائق التجربة. (صليبا، 1982، صفحة 325) يرتبط هذا النوع من الخطاب بالعلوم والمعارف التي تعتمد على القرائن والأدلة وتستعين

أدب الرحلة من التقرير إلى التخيل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

بالتجربة والوصف للبحث في قضية من القضايا العلمية أو لتتبع ظاهرة ما، ومنها التاريخ وعلم الجغرافيا والأنثروبوجيا وهي معارف يستوعبها الخطاب الرحلي، كما يبرز هذا النوع من الخطابات في العديد من الأنواع الأدبية كالمقال والسيرة، واليوميات وغيرها، لارتباطها بتاريخ الأشخاص، وعليه فالنص في الرحلة لا يخلو من التقرير.

3.2 مفهوم التخيل:

ونقصد بالتخيل تلك "الصورة المشخصة التي تمثل المعنى المجرد تمثيلا واضحا. وهذا المعنى مألوف في الأدب والشعر والفن"، (صليبيا، 1982، صفحة 547) وهو عند الفلاسفة العرب القدامى "قوة للنفس تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة (..) وله نوعان أحدهما تمثيلي والآخر مبدع"، (صليبيا، 1982، صفحة 547) إن التخيل التمثيلي يعتمد على استحضار وإعادة صور للذهن وإعادة تركيبها أما التخيل المبدع فيستمد عناصره من الوجود، فيركبها تركيبا جديدا، وهناك نوع آخر من التخيل هو التخيل الوهمي، الذي ينسج الرؤى والأحلام نسجا خياليا لا صلة له بالوجود الحقيقي.

إننا نصادف هذه الأنواع من التخيل في النص الرحلي، فالرحالة يستحضر الأحداث التي مر بها في رحلته قبل فعل الكتابة، وعملية الاسترجاع ممارسة تخيلية، فالغرناطي لم يدون ما حدث معه أثناء رحلته، والمدة الزمنية الفاصلة بين زمن الكتابة وفعل الرحلة تمتد لسنوات طويلة وبالتالي ستملأ الذاكرة الفجوات اعتمادا على الخيال، وهو ما ينسجم مع التخيل التمثيلي والإبداعي، كما أن للرؤى والمنامات حضور واضح في أدب الرحلة، مما يؤكد أنه فن لا يخلو من الذاتية والتخيل. ويقول أبو حامد في سبب وضعه للكتاب: "ولما وصلت إلى الموصل سنة سبع وخمسين (وخمسائة) ونزلت في جناب الشيخ الإمام الزاهد الماجد، معين المسلمين ومحيي سنن سيد المرسلين وخاتم النبيين وسيلة المتعبدين أبي حفص عمر بن محمد (...)

فوزية قفصي

ولم يزل أبقاه الله ومن المكاره وقاه يحثني كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته في الأسفار من عجائب البلاد والبحار وما صح عندي من نقله الأخبار الثقات الأخيار، فأجبتة إلى ذلك..". (الغرناطي، 1989، صفحة 29)

إن التخييل إذا "قوة مصورة أو قوة ممثلة تريك صور الأشياء الغائبة، فيتخيّل لك أنها حاضرة وتسمى هذه القوة بالمصورة" (صليبا، 1982، صفحة 261) وتخيّل الشيء اخترعه وابتدعه وهو قوة تتصرف في الصور الذهنية بالتركيب والتحليل والزيادة والنقص، وتسمى هذه القوة بالمخيلة أو المتخيلة، حيث يرى الفارابي أنها "تحفظ المحسوسات من بعد غيبتها عن الحس .. فتفرد بعضها عن بعض، وتركب بعضها إلى بعض تركيبات مختلفة يتفق في بعضها أن تكون موافقة لما أحس وفي بعض تكون مخالفة للمحسوس." (الوافي، د.ت، صفحة 59، 60)

والمخيلات عند فلاسفتنا القدماء "هي القضايا التي تقال قولاً لا للتصديق بها بل لتخييل يؤثر في النفس تأثيراً عجيماً." (صليبا، 1982، صفحة 262) واعتبر القرطاجني أن من شروط التخييل الحسن واقترب الشيء المحاكي من الشيء المحاكي، فلا ينفي وجود تخييل يدخل من باب الممتع العجيب، (القاضي، 2010، صفحة 74) ومن معاني التخييل في الأدب القصة المبتدعة (رواية، وأقصوصة..) أو هو ضرب من الكلام المخالف للحقيقة من جهة ما فيه من تضليل وكذب، أو من حيث هو إيهام بالواقع. (القاضي، 2010، صفحة 74)

أما الحدث (Fait) والتخييل (fiction) فهما من المعارف القديمة، وهما مشتقان من كلمتين لاتينيتين، فجاءت كلمة (fait) من (factus) وتعني التشكيل والإبداع والصنع. (sommer, 1956, p. 153) بينما جاءت كلمة (fiction) من (factio) وتعني التشكيل والإبداع. (sommer, 1956, p. 154) ومفهومها الاصطلاحي لا يرتبط بصورة بعينها "وإنما يتنزل في النص الأدبي جميعه، بحيث يكون

أدب الرحلة من التقرير إلى التخيل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

التخيل مرتبطا بحركة الصور في النص وتبايناتها وإيحاءاتها وإمكانات دلالتها ضمن مبدأ التماسك النصي." (القاضي، 2010، صفحة 371)

ونحسب للوهلة الأولى أنهما كلمتان واضحتان وتحملان معان متشابهة، إلا أن الحقيقة غير ذلك، فالأولى (fait) كانت ترتبط بالواقع والحقيقة – وفق منظور التداول العام للكلام- كما ارتبطت بالوهم والخيال والأحلام، وإذا دققنا النظر في معنى الكلمتين وعلاقتها بالواقع فإن (fact) تظل تعني الشيء المفعول ولا تفقد كلمة (fiction) معنى الشيء المصنوع، ولكن السؤال الذي نطرحه هنا، هو كيف تشارك الأشياء في صنع الحقيقة؟ (شولز، 1988، صفحة 14) إن سفر الغرناطي فعل تم انجازه، حيث انطلق الرجل من مسقط رأسه مسافرا إلى العديد من البلدان، وكان لهذه الرحلة وجود حقيقي تجسد من خلال فعل التنقل والترحال، فهي شيء مفعول بينما الشيء المصنوع ونقصه به الكتاب الذي ينقل تجربة السفر يبقى ولا يزول حتى يضمحل أو يندثر، ولا يواجه القارئ الشخصيات المذكورة فيه وإنما يتخيلها من خلال الوصف الذي تقدمه، وبهذا لا يكون لـ (fait) وجود حقيقي في حين قد يدوم (fiction) فترة زمنية طويلة، وعلاقتها بالزمن هي التي تحدد مدى ارتباطهما بالواقع والحقيقة، ومما سبق نصل إلى أن النص الرحلي يقوم على التخيل عبر فعل الاسترجاع.

3. تجليات الخطاب التقريري في رحلة الغرناطي:

1.3 الخطاب الواصف:

يحاول الرحالة في كثير من الأحيان أن يصور وعيه بالمشاهد والأحداث والأماكن من خلال أسلوب علمي، يعتمد فيه على الملاحظة والتسجيل، ومع ذلك لا يمكننا أن نجزم بموضوعيته، فأراء وأفكار المؤلف تمتزج مع آراء وأفكار غيره، كما أن أحكامه على الأغلب تكون انطباعية تعبر عن حسه وشخصيته عند مواجهة المشاهد التي يراها، حيث يصف الغرناطي باشغراد فيقول: "أمم عظيمة وهي ثمانية وسبعون

فوزية قفصي

مدينة كل مدينة كأصفهان وبغداد وفيها من النعيم والرخاء ما لا يعد ولا يحصى وابني الأكبر حامد، تزوج بامراتين من كبار المسلمين ورزق أولادا". (الغرناطي، 1989، صفحة 61)

ويظهر الجانب الواقعي في نص الرحلة من خلال الوصف "ذلك النوع من الخطاب الذي ينصب على ما هو جغرافي أو مكاني أو شيئي أو مظهري أو فيزيونومي.. ينصب على الداخل أو على الخارج. ويمكنه أن يحضر مجسدا في دليل منفرد أو مركب، أي في كلمة أو جملة أو متتالية من الجمل." (محفوظ، 2009، صفحة 13) ويعمل الوصف على "نقل صورة العالم الخارجي أو العالم الداخلي من خلال الألفاظ والعبارات والتشابه والاستعارات التي تقوم لدى الأديب مقام الألوان لدى الرسام، والنغم لدى الموسيقي." (جبور، 1984، صفحة 293 و 292) إنه يعكس الصورة الحقيقية للأشياء، وأجوده ما كان محيطا بمختلف جوانب الشيء الموصوف، فيحول صورته المادية المألوفة إلى صورة أدبية تركز على نسيج أدبي متين. (مرتاض، 1998، صفحة 285) ويعرفه غريماس قائلا: "ندعو وصفا أيضا، في مستوى التنظيم الخطابي مقطعا، على مستوى السطح نجعله مقابلا لحوار أو لسرد أو لمشهد مع التأكيد ضمنيا أن خصائص الوصف الشكلية، تسمح بوضعه ضمن التحليل الكيفي، وفي هذه الحالة يجب أن يعامل الوصف على أنه تسمية مؤقتة لشيء يبقى في حاجة إلى تعريف." (Courtes, 1993, p. 92) ويصف الغرناطي أهل غانة فيقول: "وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا، سبط الشعور فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة (...) وأشرهم قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون كأن شعورهم حب فلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسموم بدماء حيات صفر، ولا يلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه." (الغرناطي، 1989، صفحة 36 و 35)

أدب الرحلة من التقرير إلى التخيل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

ويرادف خطاب الرحلة خطاب الحقيقة حتى لو كانت هذه الأخيرة قائمة على التخيل، حيث يحرص الرحالة في رحلته على تسمية الأشياء بمسمياتها معتمدا على معجم يستند إلى المعيش واليومي خاصة على مستوى اللهجة ببعدها الحضري والبدوي. (مودن، 1996، صفحة 71 و70) مما يجعل المحكي الواقعي ينفتح على السرد بين التعبير البياني والتعبير الوظيفي، بين اللغة الأدبية واللغة التواصلية. (مودن، 1996، صفحة 71) ويسمح الأسلوب الواقعي في الرحلة بتقديم ما يمكن تسميته بالصور المضاعفة التي تقوم على ازدواجية التقديم من خلال وصف المرئي ونقل المشاهدات والمسموعات، وهو في الوقت نفسه محاولة لإنشاء صور بمساعدة الذاكرة الثقافية، فيتولد مستويان متناقضان ومتكاملان؛ أفقي يحفل بجردها المرئيات الغربية، وعمودي يفسر من خلاله الرحالة هذه المرئيات.

2.3 الخطاب التاريخي:

يمكن توضيح تلك العلاقة المعقدة بين الحدث (fait) و الخيال (fiction) إذا فكرنا في مكان تجتمع فيه الكلمتان، وهذا المكان ندعوه التاريخ (histoire). (شولز، 1988، صفحة 15) وهي كلمة من أصل إغريقي وتعني في الأصل الاستعلام أو البحث. (Dauzat, 1938, p. 390) ولكنها سرعان ما اكتسبت معنيين آخرين، الأول يرى أن كلمة تاريخ قد تعني الأشياء التي حدثت، فيصف الأفعال في زمن ماض وحقيقي أو خيالي أو غامض وحكاية هذه الحوادث، وتخيل حدوثها، (Courtes, 1993, p. 173) أما فلسفة التاريخ فتعني بوضع "تفسير تعلل به تتابع تلك الحوادث، فتربط بعضها ببعض ربطا معقولا" (بوقلي، 1986، صفحة 500) ويؤكد هيجل من جهة أخرى أن التاريخ محكوم بعقل عام، وهو عبارة عن تطور الفكرة والروح، فعظماء التاريخ وأبطال الأمم ما هم سوى وسائط أو أدوات اتخذتها تلك الروح للتعبير عن مقاصدها وإدراك غاياتها (بوقلي، 1986، صفحة 501) ولأن الرحالة العربي يقوم بأدوار متعددة خاصة نقل المشاهدات والمرويات المتعلقة بالأمم

فوزية قفصي

الأخرى، فإننا نجد هذه النوعية من المرويات ماثورة في رحلة الغرناطي فيتنقل في البلدان ويلتزم بذكر التواريخ التي تتعلق بتحركاته، كما يصف الشعوب المختلفة ويتحدث عن خصالهم وعاداتهم وسلوكاتهم اعتمادا على مشاهداته أو نقلا عن ما روي له حيث يقول عن مدينة رومية: "ولما كنت في باشغر سنة خمس وأربعين وخمسمائة كان بيني وبين رومية أياما يسيرة وسألت بعض المسلمين الذين يسافرون إليها من باشغرد عن صفتها لي كما كتبتها ها هنا، وذكر أن أكثر المدينة قد خرب الآن لأن الأمراء تنافسوا في البلد وتقاتلوا، والملك الكبير لا يقدر على قهرهم..." (الغرناطي، 1989، صفحة 59)

يتحدد الاختلاف بين التاريخ والقصة على مستوى الدلالات والمضامين والأهداف، فالتاريخ يسعى لحصر حادثة تاريخية بمختلف أبعادها لتحقيق أهدافه التي يحددها ابن خلدون قائلا: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة شريف العائدة إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط" (خلدون، 1996، صفحة 8) وتتميز القصة عن التاريخ في كونها فنا ينضج بالمعاني والدلالات، وقد يلجأ إليها التاريخ ليجعل منها مصدرا يحفظ الأحداث والوقائع التاريخية، فالغرناطي عندما أورد حديثا عن صنم قادس حيث يقول: "بناه ذو القرنين والله أعلم بالصواب، وذلك في الأندلس مجمع البحرين البحر الأسود وبحر الروم، وفي مجمع البحرين جزيرة قد بني فيها منارة من الصخر الأسود(..)" (الغرناطي، 1989، صفحة 62 و61) لم يكن مقيدا بالضوابط الصارمة التي يفرضها التاريخ وعليه فالرحالة ليس مؤرخا، لكنه قد ينقل مرويات شعبية قد يستفيد منها التاريخ.

أدب الرحلة من التقرير إلى التخيل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

ولا ترتبط القصة فقط بالحقيقة والتاريخ بل تكون مختلفة، ويمكن وصفها على أنها ليست نتاجا للخيال البشري العادي، ومن المفيد هنا أن ننظر للقصة من الجانبين، فقد تكون تاريخية صرف ولها مكانها بين الوقائع والأحداث التاريخية، كما قد تكون خيالية صرف، فتتحدى خيالننا وإحساسنا بالاحتمالات الموجودة في الحياة. (شولز، 1988، صفحة 16)

و قد اعتمد الغرناطي على نوعين من المصادر: كتابية و شفاهية، أما المصادر المدونة فمن المستبعد أن يدخل على نصوصها تغيير على عكس الروايات الشفوية المعرضة للحذف والزيادة والنقصان، ومنها الحكايات والأساطير والخرافات والقصص، ومع ذلك فهي تلعب دورا مهما في تفسير التاريخ لأنها تكمل الدور الذي تؤديه المصادر المدونة. فللخيال الجمعي دور واضح في تفسير التاريخ وتوضيح معالمه، ويقترب المحكي الرحلي من الأدب الشعبي فيرصده الرحالة من خلال ما يروى له في البلدان التي يزورها ، ولا يختلف اثنان على أن الأدب الشعبي بكل أشكاله التعبيرية يعد مخزونا تاريخيا وثقافيا وفكريا للأمم والشعوب، ويعمل المؤرخ على جمع المعلومات والعناصر المختلفة التي تتألف منها الحادثة التاريخية، ولأنها تنتهي إلى الماضي فإنه يدرسها اعتمادا على الآثار والوثائق، وهي أنواع يمكن تلخيصها في فئتين، المصادر غير الإرادية التي لم يتدخل قصد ولا نية في صناعتها كالأبنية والأسلحة والنقود والأوسمة والتراث الفكري والأدبي وغيرها، والمصادر الإرادية كالرواية وكتب التاريخ والآثار. (بوقلي، 1986، صفحة 489)

4. تجليات الخطاب التخيلي في رحلة الغرناطي:

1.4 السيرة الذاتية:

يندرج أدب الرحلة ضمن أدب السيرة الذاتية التي يعرفها فيليب لوجون على أنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة." (لوجون، 1994،

فوزية قفصي

صفحة 22) فما الكاتب والراوي والرحالة إلا شخصية واحدة تبدأ مغامرتها برحيل وتنتهي عند تدوينها، فعودة الغرناطي لم تكن إلى غرناطة مسقط رأسه ذلك أن فعل الكتابة تم في الموصل بناء على رغبة الشيخ المتعبد أبو حفص عمر بن محمد، وقد تحقق الرهان الرئيسي في الرحلة وهو التعريف بالآخر (الكافر) الذي يختلف عن الأنا (المسلم) حتى يتسنى للعرب الاستفادة من خبرة الرحالة ومشاهداته، كما يمكن للمحكي في أدب الرحلة أن يتخذ شكل يوميات أو رسائل أو مذكرات أو ذكريات سائح. غير أنه قلما يُؤسس على يوميات تنقل الأحداث ساعة بساعة بل تتخذ هذه الأخيرة إطارا لكتابة لاحقة مع أنها قد تعود إلى الظهور بشكلها الأول، ويستعين بها الكاتب بعد تنقيحها. من هذا المنطلق يحاول المحكي -على طريقة السير- أن يعطي إيقاعا ومعنى لمغامرة ما، وأن يصنع من دقائق المصادفات كليات مهما بعدت المسافة الزمنية بين الذات الكاتبة والذات المرتحلة.

فأدب الرحلة وفن السيرة يكتبان بعد أن ينقضي شطر من حياة أصحابهما، وليس هناك أدلة على أن الغرناطي كانت معه مذكرات أو يوميات استعان بها في كتابة وتذكر رحلته وما اعترضه فيها، وكل الأدلة تشير إلى أنه اعتمد على الذاكرة التي تعمل على التنقيح والاختزال والتكثيف أو التضخيم والمبالغة وتركز على الأحداث والمشاهد شديدة التأثير والتي تترك انطباعات صارخة أو هدوء وصفاء في الذهن، (قنديل، 2002، صفحة 493) فالذكريات في الواقع "لا تعود أبدا طبق الأصل بالنسبة لما كانت عليه الانطباعات الأولى، إنها في معظمها تركيب جديد يقوم به الفكر (..) هذا معناه أن الفكر في تركيبه للذكرى لا يتجرد من جوه السيכולوجي المتدفق من الحركة ومن وسطه الثقافي أو الاجتماعي الذي يمدّه بعلامات استرشاد تسمح له إلى حد ما بالتثبت من صحة الذكرى." (بوقلي، 1986، صفحة 316 و315) فنجد الغرناطي يتحدث عن نسل عاد فيقول: "ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلا طويلا كان طوله أكثر من سبعة أذرع كان

أدب الرحلة من التقرير إلى التخيل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

يسمى دنفى، كان يأخذ الفرس تحت إبطه، كما يأخذ الإنسان الجمل الصغير، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ويقطع جسده وأعصابه كما يقطع باقة البقل." (الغرناطي، 1989، صفحة 138) فالمبالغة في وصف حجم وقوة هذا الرجل من فعل الذاكرة الاسترجاعية.

كما لا تكون شخصية السارد مهمة وضرورية دائما، فالمحكي الرحلي يكون عادة بصيغة المتكلمين والراوي يسافر مع جماعة، ويتكلم باسم زمرة اجتماعية حين يفسح مجال السرد لغيره من الكتاب أو الرحالة السابقين، ومع أن الأمر قد يختلف من كاتب لآخر، إلا أن ما يشدنا إليهم جميعا هو علاقتهم الوثيقة بالعالم وانعكاس هذا الحس على أدبهم، إذ لا ينقلون الأشياء كما هي وإنما ينقلونها على طريقتهم ووفق منظورهم الخاص، يظهر ذلك في قول الغرناطي: وبالقرب "من القيروان قبر رجل صالح يقال له محمد المعلم وكان من الزهاد مستجاب الدعوة وكان من مر على قبره يأخذ من ترابه شيئا فإذا ركبوا على البحر (..) وكثر الموج أخرجوا من تراب قبره شيئا وألقوه (...)" وكان رجل من أصحابنا قد أخذ من ترابه.. (الغرناطي، 1989، صفحة 143)

2.4 القصة

يتشكل النص الرحلي من محكي رئيسي، يتمثل في رواية تجربة السفر وما يتعلق بالرحالة من أحداث ومغامرات مر بها، ومحكي ثانوي يتجلى من خلال الأخبار والمرويات التي ينقلها عن الآخر شفويا، أو ما نقله عن الكتب من قصص تاريخية أو خرافية أو شعبية، تحتوي القصة مثل التاريخ على سلسلة من الأحداث المتتالية والمتراطة، ويسمى فولتير *voltaire* "رواية" أو "تاريخا" ما نسميه قصة، (زيرافا، 1985، صفحة 99) وهي لم تأخذ معنى الخبر المسلي أو العجيب إلا ابتداء من القرن الحادي عشر.

فوزية قفصي

وتعتبر القصة عن رؤية ما للحياة، ومن هنا نفهم اتجاه القصة المتزايد نحو المدهش، وهي تنتقل من الصورة والواقع إلى الخيال والروعة، هي إذا ذلك التنوع في العلاقة مع العالم والطبيعة. (زيرافا، 1985، صفحة 100) ولعل الشكلايين الروس هم أول من حاول إعطاء مفهوم محدد للقصة من خلال تعريف المتن الحكائي الذي يعد مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل، وهو لا يستلزم علامة زمنية ولكن أيضا علامة سببية. (توماشفسكي، 1982، صفحة 180)

ولا تعد القصة أكثر من رواية أحداث متسلسلة بحيث يبدو كل منها مستقلا عن الآخر ويقوم الراوي بإرساء روابط منطقية بينها، عادة ما تخضع لمنطق السببية فيكون الحدث نتيجة لسابقه والحدث السابق سببا لللاحق، وتشكل الوحدات السردية ذات الأبعاد المتميزة نتيجة إخضاع المشاهد المتعددة والإسقاطات القصصية لنوعين من العلاقات، إحداها ذات طابع تكاملي، إذ يرى بريمون Bremond أنه مهما اختلفت طرائق التواصل السردية وتنوعت أساليب التعبير فإنه يجب ويكفي أن يروي المحكي قصة تكون بنيتها مستقلة عن التقنيات التي تؤديها، بحيث يسهل تنقلها عبر الأجناس السردية دون أن تفقد شيئا من خصائصها الأساسية، وبناء على ما سبق نلاحظ أن النص الرحلي يتشكل من قصة رئيسية تتمثل في تجربة السفر التي قام بها الرحالة في العالم الواقعي أو المتخيل وما واجهه فيها، إلى جانب عدد كبير من القصص التي يرومها عن الآخر انطلاقا من مشاهداته أو مما روي له ونقله.

5. خاتمة

ونتيجة لما سبق يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

- يعتمد الغرناطي في الخطاب الرحلي على عنصري الربط الزماني والمكاني، فعند وقوفه عند حدث معين أو مكان ما غالبا ما يورد حكاية أو خبرا يرتبط بذلك المكان أو الحدث، ويستمتع بسرد مشاهداته وما يرويه من أخبار وقصص تحدث معه أو تروى عليه، فيبرز الحس القصصي في سرد الأحداث، على صعيد التجربة الذاتية المتعلقة به، وعلى صعيد دراسة الآخر ومحاولة التواصل معه ومعرفته.
- يتجلى الخطاب التقريري في رحلة أبي حامد الغرناطي من خلال الوصف أما الخطاب التخيلي فيتعلق السرد..
- يتضافر الخطابان معا ليشكلا نص الرحلة، التي تجمع بين النقل الواقعي والسرد العجائبي.

5. قائمة المراجع:

Courtes, G. e. (1993). *Sémiotique-dictionnaire raisonné de la théorie du langage*. paris: Hachette.

Dauzat, A. (1938). *Dictionnaire Etymologique*. Paris: Larousse.

sommer. (1956). *Lexique latin-Français*. Paris: Hachette.

إبراهيم السعافين. (2000). *أساليب التعبير الأدبي*. الشروق.

أبو حامد الغرناطي. (1989). *تحفة الألباب ونخبة الإعجاب*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

آخرون ونيشال زيرافا. (1985). *الأدب والأنواع الأدبية*. (طاهر حجار، المترجمون) دمشق: دار طلاس.

توماشفسكي. (1982). *نظرية الأغراض ضمن نصوص الشكلايين الروس* (الإصدار ط1). الشركة المغربية للناشرين المتحدين ومؤسسة الأبحاث العربية.

جمال الدين بوقلي. (1986). *قضايا فلسفية* (الإصدار ط4). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

جميل صليبا. (1982). *المعجم الفلسفي*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

روبرت شولز. (1988). *عناصر القصة* (الإصدار ط1). (محمد منقذ الهاشمي، المترجمون) دمشق: دار طلاس.

عبد الرحمن بن خلدون. (1996). *المقدمة*. بيروت: مكتبة لبنان.

عبد الرحيم مودن. (1996). *أدبية الرحلة*. المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.

عبد اللطيف محفوظ. (2009). *وظيفة الوصف في الرواية* (الإصدار ط1). الجزائر: منشورات الاختلاف.

عبد الملك مرتاض. (1998). *في نظرية الرواية*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.

عبد النور جبور. (1984). *المعجم الأدبي* (الإصدار ط4). بيروت: دار العلم للملايين.

عز الدين المناصرة. (2010). *الأجناس الأدبية، في ضوء الشعريات المقارنة (قراءة*

مونتاجية) (الإصدار ط1). عمان: دار الراية للنشر والتوزيع.

علي عبد الواحد الوافي. (د.ت). *المدينة الفاضلة للفارابي*. القاهرة: دار نهضة مصر.

أدب الرحلة من التقرير إلى التخييل – رحلة أبي حامد الغرناطي أنموذجا

فؤاد قنديل. (2002). أدب الرحلة في التراث العربي (الإصدار ط1). مصر: مكتبة الدار العربية.

فيليب لوجون. (1994). السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ (الإصدار ط1). (عمر حلي، المترجمون) الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

محمد القاضي. (2010). معجم السرديات (الإصدار ط1). تونس: دا محمد علي للنشر.